وتلامذة) كانوا مشاعل الثقافة على ذلك العهد، ومن عناوين مؤلفات أو مقررات دراسية.

إن هذه الاعتبارات لا تستفيد أهمية مضمون الكتاب، فهو يظل زاخرا بالمعلومات الأخرى التي قد يستفيد منها مختلف الباحثين في شتى التخصصات العلمية الإنسانية، لما يحتوي عليه من معطيات حول الواقع الاجتماعي، والديني، والسياسي، والاقتصادي، والروحي، والثقافي لمجتمعات الغرب الإسلامي إلى حدود القرن الثامن الهجري.

دور زينب النفزاوية في قيام الدولة المرابطية.

أة./ فوزية كرزاز

موضوع المرأة ظل ولا زال من المواضيع المهمّشة في الدراسات التاريخية بشكل عام، وتاريخ الغرب الإسلامي بشكل خاص، على غرار طبقة العبيد، الطفل و غيرها من المواضيع التي اعتبرت ثانوية. في المقابل اهتمت الدراسات بشكل واضح بالجانب السياسي و العسكري باعتباره يشكل التاريخ الرسمي من جهة، ولوفرة المادة التاريخية من جهة أخرى.

وإن كانت الدراسات ذات الطابع الاجتماعي تطرقت للمرأة، فإن تعرضها لها كان بإيجاز على الرغم من أهمية هذه الأخيرة في المجتمع.

ولأن إبراز دور المرأة و مكانتها يوضح بشكل جليّ الصورة الحقيقية لمجتمعها، وكذا العقليات السائدة فيه، حاولنا أن نأخذ نموذجا من نساء الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط وبالذات داخل الدولة المرابطية لنتعرف من خلاله على صورة السلطة والمجتمع فيها.

تعتبر زينب النفزاوية أكثر النساء شهرة من غيرها في الدولة المرابطية، فمن تكون هذه الأخيرة وما هو حجم الدور الذي لعبته حتى أهّلها لأن تحتل المرتبة الأولى ؟

زينب النفزاوية هي ابنة أحد التجار أصله من القيروان يدعى إسحاق الهواري، وهي حسب وصف المصادر التاريخية لها "امرأة حازمة، لبيبة، ذات رأي وعقل وجزالة، ومعرفة بالأمور حتى كان يقال لها الساحرة"[1].

---

* أستاذة مساعدة في تاريخ المغرب الإسلامي-معهد التاريخ-م.ج. معسكر.

أول زواجها كان من يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن وطاس شيخ وريكة وهزرجة في دولة أمغارن في بلاد المصامدة، و لما تغلب بنو يفرن عليهم، وملكوا أغمات تزوجها شيخهم لقوط بن يوسف المغراوي، و لما افتتح المرابطون بلاد المصامدة سنة 450هـ/1058م قتل زوجها[2]، وتزوجها بعده أبو بكر بن عمر المرابطي بعدما استقر به المقام بأغمات.

وكانت هذه الأخيرة قـد "شاع ذكرها وأمرها في قبائل المصامدة، فكان يخطبها أشياخهم و أمراؤهم فتمتنع لهم وتقول: لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كله"[3].

ويظهر من قولها رغبتها الشديدة والصريحة في الزواج من أبي بكر بن عمر، خاصة وأن الأمور استقامت له بأغمات، وهي دلالة واضحة على إرادتها الكبيرة بالمشاركة في أمور السلطة، أو على الأقل يكفيها فخرا بأن تنعت زوجة الأمير، خاصة وأنها اعتادت الزواج من شيوخ القبائل كما سلف ذكره.

كما يبدو أن قولها هذا كان حافزا لأبي بكر بن عمر ليتقدم لخطبتها و الزواج منها، ولو أن المصادر التاريخية لم تشر إلى ذلك، بل جعلت جمال زينب هو السبب، وهذ ما أورده ابن عذاري المراكشي في بيانه إذ يقول: " فأعلم بجمالها الأمير أبو بكر فخطبها وتزوجها..."[4] .فهل زواجها من أبي بكر هو الذي أتاح لها فرصة التدخل المباشر في شؤون السلطة؟

لقد اختلفت الدراسات التاريخية حول تحديد زمن البروز الحقيقي، والدور الرئيسي لها داخل الدولة المرابطية. فهناك من اعتبر الزيجة الثالثة لها من أبي بكر هي التي مكنتها من القيام بأدوار سياسية مهمة في هذه الدولة،[5] ومن الدراسات من ترى أن الدور الحقيقي لها بدأ بزواجها من يوسف بن تاشفين، وهو الشخص الذي تطلعت للاقتران به.[6]

ولا يمكننا مسايرة الرأي الأول، لأن صاحبه قد يكون استند في نتيجته تلك على النص التاريخي التالي: "...فوعدته بمال كبير تخرجه له، أدخلته في دار تحت الأرض معصب العينين، ثم أزالت العصابة ففتح عينيه فرأى بيوتا فيها ذهب كثير وفضة وجواهر ويواقيت...فقالت له زوجه: هذا كله مالك ومتاعك أعطاك الله إياه على يدي، فصرفته الآن عليك...ثم أخرجته معصب العينين من ذلك الموقع كما أدخلته فيه، فلا علم من أين دخل ولا من أين خرج..."[7]

وما يلاحظ على النص أن عنصر الأسطورة واضح في الرواية دون شك، على الرغم من أن هذه الشخصية ليست بالخرافية ولا الأسطورية، بل قد يرجع ذلك إلى محاولة إظهار أهمية زينب في حياة أبي بكر بن عمر. كان هذا أحد الأسباب التي تجعلنا نستبعد ظهورها في حياته السياسية، فضلا على أن هذا الأخير لم يستفد من أموال زوجته، ولم يسخرها في تنظيم أمور دولته، دليل ذلك أنه جاهل لمكانها كونه دخل وخرج منه معصب العينين. إضافة إلى كل هذا عدم استقراره طويلا بأغمات[8]؛ وبالتالي لم يكن المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية ولم تكتمل بعد معالمها في عهده، هذه الأسباب كلها حالت دون ظهور زينب النفزاوية على الساحة السياسية في عهـــد أبي بكر بن عمر،

على الرغم من أن حياتهما الزوجية دامت قرابة اربع سنوات أي بعد دخول أبو بكر أغمات سنة 460هـ/1067 إلى غاية رجوعه إلى الصحراء سنة 463هـ/1070م. هذا حسب رواية ابن عذاري. فما هو مصير زينب بعد رحيل زوجها إلى الصحراء؟

وهو متوجه إلى الصحراء للجهاد قرر أبو بكر أن يطلقها، إذ قال لها: " إني مسافر عنك برسم الفتن والحروب، ولا يمكنني أن أمشي عنك، والرأي أن أطلقك. فذكروا أنه قال لابن عمه يوسف بن تاشفين تزوجها فإنها امرأة مسعودة".[9]

وتم زواج يوسف من زينب في نفس السنة – أي سنة 463هـ، " فسرّت به وسرّ بها، وأخبرته أنه يملك المغرب كله، فبسطت آماله، وأصلحت أحواله، وأعطته الأموال الغزيرة، فأركب الرجال الكثيرة، وأخذ في جمع الجيوش من البربر..."[10]

ما يسترعي الاهتمام في هذا النص هو إخبار زينب ليوسف بأنه يملك المغرب كله، فهل كان هذا تبصرا لما سيحدث له مستقبلا ؟ وعندها ينطبق عليها وصف الروايات التاريخية لها بالساحرة والكاهنة. أم هو دليل حنكتها في التخطيط والوصول بابن تاشفين إلى سدّة الحكم؟ وربما هو الأمر الذي جعلها تضع أموالها تحت تصرفه، وبهذا تكون من ممهدي الأرضية للدولة المرابطية.

هذا ولم تقتصر مساعدتها لزوجها على الجانب المادي بل تعدّته إلى الجانب المعنوي. وهذا الأخير أهم من الأول ذلك لما يقتضيه من بذل جهد فكري، وخبرة واسعة في أمور الحكم. ويشير أكثر من نص تاريخي إلى وقفة زينب إلى جانب زوجها في بعض القضايا السياسية الحساسة والخطيرة، منها هذا النص الذي يقول فيه صاحبه: "...فكانت القائمة بملكه، والمدبرة لأمره، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب، ومن ذلك إشاراتها عليه في أمر أبي بكر بن عمر وكيفية ملاقاته."[11] هذا بعدما عاد من الجهاد قصد الاستحواذ على الملك من يوسف بن تاشفين وهو الأمر الذي أقلقه ووتره.

وتجدر بنا الإشارة إلى اختلاف الروايات التاريخية حول تحديد كيفية تدخل زينب في فض النزاع بين الطرفين، فمنها من أشارت إلى مبادرتها باقتراحها، لما رأت زوجها مكروبا ومهموما بعد عودة أبي بكر بن عمر، فطمأنته وأقسمت على عدم استقراره بالمنطقة،[12]

وإذا ما صحّت هذه الرواية فإنّ إرادة يوسف بن تاشفين لم تكن كبيرة لديه في إبقاء نفسه على الحكم، بل كانت تلبية لرغبة زوجته.[13] ومن الروايات من أشارت إلى أن زوجها هو الذي لجأ إليها لتمدّه بالرأي السديد في القضية.[14]

ويبدو أن مبادرة يوسف هي الأصح، ذلك عندما يشعر بدقة الموقف وحرجه إذ لا يمكنه أن يتمرّد على إمامه وأميره الشرعي لأنه شديد التديّن، كما لا يمكنه التخلي بسهولة عن ملكه.[15]

وما يهم في الأمر كله هو الحل الأنجع الذي رأته زينب مناسبا لحل المشكل، والمتمثل في إبداء يوسف الغلظة والجفاء تجاه أبو بكر مع ملاطفته بهدية[16] تتنوع فيها الطرف، ويكثر منها لأن بلاد الصحراء تفتقرها. وسيرضى لأن الرجل ورع، ولا يهون عليه سفك الدماء.

والواضح أن اقتراحا كهذا لم يكن عشوائيا، ولا من قبيل الصدفة، بل حدده عاملان أولهما كون زينب كانت فيما مضى زوجة لأبي بكر بن عمر، وهي بذلك تعرف شخصيته وطباعه، وثانيهما يبدو أنها كانت كثيرة التجوّل في المناطق الصحراوية، ممّا أكسبها معرفة بخصائص كل منطقة من غناها وافتقارها، ونمط العيش بها. فاقترحت ما يرضي أبي بكر وأهل المنطقة أجمعين، فوافق يوسف بن تاشفين على اقتراحها قائلا:" والله لا خالفتك أمر تشرين به أبـــدا."[17]

ولما تم اللقاء بين الرجلين لقي هذا الاقتراح ترحيب أبي بكر، فخلع نفسه وأشهد بعض العدول وعاد من حيث أتى[18]، وبهذا يتأكد لنا مرة أخرى أن زينب من أهم وأول دعائم يوسف بن تاشفين في إقامة دولته.

ولا نستبعد أن تكون زينب النفزاوية هي صاحبة المشورة على زوجها في بقية فتوحاته لمناطق المغرب إلى غاية وفاتها، ذلك عندما تمدّنا النصوص التاريخية بمعطيات أخرى عن هذه المرأة، كاشتهارها بالجمال والرياسة[19]، ووصفت على أنها من أحسن النساء ولها حكم في بلاده[20]، وكذلك نص آخر لإبن عذاري إذ يقول:" وكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته، وهي التي جسّرته على ذلك كله حتى ملك المغرب

أسعد ملك وأتمه نصرا على العدو"[21]، وكذلك "كانت أحب ما لديه إمرأة غالبة عليه...ولا كان أمر إلا أمرها".[22]

إن المساعدة المادية والمعنوية التي قدّمتها زينب لزوجها ابن تاشفين كانت وسيلة لامتلاك قلبه، وتصيير الكلمة لها في بلاده. وقد وفّقت إلى حدّ ما في تحقيق هدفها، ويتجلى ذلك من خلال اعتراف زوجها بحيث "كان يقول لبني عمّه إذا خلا بهم وورد ذكرها: إنما فتح البلاد برأيها".[23] وورود ذكرها في الجماعة دليل نجاحها في فرض نفسها على الساحة السياسية حتى أصبحت حديث العام والخاص، وهي بذلك تخطت التفكير في الحياة الاجتماعية إلى التفكير في أمور السلطة وما يتعلق بها.

على الرغم من الدور الكبير الذي قامت به زينب لصالح يوسف بن تاشفين، والذي ذكرته عند جلّ المصادر التاريخية التي تناولت الدولة المرابطية، إلاّ أنّ هناك من المصادر التي تجاهلتها تماما كصاحب الحلل الموشية، وهذا راجع لأحد السببين إما لطبيعة كتابته إذ يقول في مقدمة كتابه: "...واقتصرت في ذلك كله على القليل خوفا من الإكثار ...جنوحا للإيجاز وميلا للاختصار".[24] وإما لاعتبار لقاء أبي بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين كان بعد وفاة زينب، إذ يحدد تاريخ وفاتها سنة 464هـ/1071م ولقاء الرجلين كان سنة 465هـ/1072م [25]. وهذا السبب أقوى من الأول في تجاهله لدور زينب.

فبعدما يستتب الأمر ليوسف بن تاشفين، ويستكمل معالم دولته، تجد لنفسها صلاحيات أخرى داخلها. ذلك لما تصبح لها الكلمة في تولية المناصب والعزل منها، يتجلى هذا في حادثة القاضي زرهون المعروف بابن خلوف هذا الأخير كان أديبا، وبلغ زينب أنه مدح حوّاء زوجة سير بن أبي بكر (ت507هـ/1113م) والي المرابطون على إشبيلية وفضّلها على سائر النساء بالجمال والكمال، فأمرت بعزله من منصبه ولم تردّه إليه إلا بعدما طلّق حوّاء من زوجها حيث قال ارتجالا:

أنت بالشمس لاحقة و هي بالأرض لاصقة
فمتى ما مـــــدحتها فهي من سيـــر طالقة

فقالت له زينب ياقاضي طلقها منه، فقـــال: نعم ثلاثة ثلاثة ثلاثة. حينها كتبت إلى يوسف برده إلى منصبه.[26]

ولعل هذه الحادثة تعطينا صورة واضحة عن دور النساء المرابطيات ذوات المراكز العالية في الدولة، كما يبدو أن زينب كانت بمثابة القاضي الأول في الـــدولة، حتى و إن لم تتقلد منصب القضـــاء مباشرة نظـــرا لأراء الفقـــهاء في ذلك آنذاك[27].

وأكيد أن تدخلات زينب التي ذكرناها مهّدت الطريق أمام نساء البلاط لاحقا، إذ أن المتتبع لأطوار الدولة المرابطية يشهد تدخلات لنساء أخريات في أمور الحكم، مثل تدخل قمر زوجة علي بن يوسف بن تاشفين التي حاولت أن تولي العهد لابنها إسحاق بدل تاشفين، كما نلمس تدخلات أخرى كان الغرض منها الوساطة والتشفع والتكسب، ونستشف هذا من خلال بعض القصائد الشعرية. كقصيدة الأعمى التطيلي (ت525هـ/1131م) التي مدح فيها حوّاء زوجة سيرين بن أبي بكر[28]، وقصيدة أخرى للشاعر ابن خفاجة مدح فيها مريم زوجة أبي الطاهر تميم[29].

هذا الحضور الدائم للنساء المرابطيات في السلطة يصفه لنا عبد الواحد المراكشي إذ يقول:" بعد سنة خمسمائة اختل أمر أمير المسلمين علي بن يوسف واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهنّ الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير..."[30]

ولم تسلم الأندلس من مثل هذا التدخل وعنها يقول دائما عبد الواحد المراكشي:" فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف اختلت أحوالها اختلالا مفرطا...وطاعتهم للنساء".[31]

وعلى الرغم من أن النساء في الدولة المرابطية شاركن في تسيير بعض أمور السلطة، ووجدن لأنفسهن مكانة مرموقة في البلاط، إلا أن وصف المؤرخ لتدخلاتهنّ كان مبالغا فيه، وهذا لينتقص من شأن المرابطين كأمة ودولة، خاصة إذا علمنا أن المؤرخ من موالي الدولة الموحدية، وعليه لا يمكننا الأخذ بمعلوماته هذه بصفة قطعية. لكن هذا لا ينفي

انقياد الملثمون لأمور نسائهم[32].وبالتالي استشارة يوسف بن تاشفين زوجته والأخذ برأيها لم تكن ظاهرة فريدة خصّ بها في مجتمعه.

هذا وتجدر بنا الإشارة إلى أن تدخلات زينب النفزاوية وغيرها لم تلق معارضة لا من قبل الحكام ولا الفقهاء، فكيف يكون هذا وهي التي استطاعت أن تعزل وتردّ قاضي من و إلى منصبه.

وإن كان سكوت الفقهاء عن هذه التدخلات عاملا زاد من تمادي المرأة في الأمور السياسية، فإن المكانة الاجتماعية هي الأخرى ساهمت في ذلك، فالنساء ذوات المكانة الاجتماعية والاقتصادية المرموقة حظين بدور في السلطة، وعليه فإن هذه المكانة هي التي حددت العلاقة بين النساء والسلطة[33].

الهوامـــش:

1- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1972، ص134

2- ابن خلدون، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1992،1413،1، ج6،ص217

3- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق و مراجعة إحسان عباس، دار الثقافة،بيروت،ط1983،3، ج4،ص18.

4-البيان المغرب، ج4،ص18.

5-Ch. André Julien، Histoire de l'Afrique du Nord،Paris 1969،T2،P80

6- عصمت عبد اللطيف دندش، أضواء جديدة على المرابطين، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1991،1،ص.167

7- ابن عذاري،المصدر السابق،ص18

8- عاد أبو بكر بن عمر إلى الصحراء بقصد الجهاد بعدما أتاه نبأ إغارة جدالة على القبائل لمتونة هنالك، و استخلف مكانه يوسف بن تاشفين. المصدر نفسه،ص20

9- نفسه،ص21/ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص134

10- ابن عذاري،المصدر السابق،ص22

11- السلاوي الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،ج2، الدولتان المرابطية و الموحدية،تحقيق و تعليق أحمد الناصري، جعفر الناصري، الدار البيضاء، 1954،ص23

12- ابن عذاري، المصدر السابق،ص23

13- ابراهيم حركات،النظام السياسي و الحربي في عهد المرابطين، منشورات مكتبة الوحدة العربية، دار البيضاء،ص53

14- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص135/ابن الخطيب،أعمال الأعلام، تحقيق و تعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ط1965،2،ج3،ص232

15- سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب و الأندلس، عهد يوسف بن تاشفين، دار النهضة العربية، بيروت، ط1405،1هـ/1985م، ص42.

16- ابن عذاري، المصدر السابق،ص26

17- نفســـه،ص24

18- نفســـه،ص25/ابن خلدون، المصدر السابق، ج6،ص218

19- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6،ص217/ج7،ص125

20- ابن خلكان،وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1994،ج7،ص125

21- البيان،ج4،ص25

22- نفســـه،ص30

23- نفســـه،ص30

24- ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار عبد القادر زمامة.،دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1399،1هـ،1979م،ص13

25- المصدر السابق،ص25

26- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق و تعليق مصطفى أبو ضيف أحمد،الجزء الخاص بالمغرب الإسلامي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، بلا تاريخ، ص 385،386

27- بن معمر محمد، تاريخ القضاء الإسلامي و تطوره ببلاد المغرب على عهدي المرابطين و الموحدين، رسالة ماجستير مرقونة، قدمت لمعهد التاريخ، جامعة وهران، 1992،1993،ص117

28- ديوان الأعمى التطيلي و مجموعة من موشحاته، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963،ص17،18

29- ديوان ابن خفاجة – تحقيق السيد مصطفى غازي، دار المعارف، الإسكندرية،1960،ص97

30- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط و تصحيح محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط1987،7،ص260

31- المصدر نفســـه،ص304

32- النويري، المصدر السابق، .385

33– بوبة مجاني النساء والسلطة في بلاد المغرب خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9–10 م)، مجلة سيرتا، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2000، ص14.

مكانة تاريخ الأندلس في الدراسات العليا بالجامعات الجزائرية*.

أ./ عبد القادر بوباية